

طَلبةُ العَقل البلاغيّ من فقه بيان الوحي

أ.د.محمود توفيق محمّد سعد(*)

القصد الرئيس من نشأة علم البلاغةِ العربيّ والغاية العظمَى إنّما هي تحقِيق حسن الفهمِ عَن الله -سبحانَه وَبِحَمْدِهِ- ، وعن رسوله -ﷺ- تحقيقًا للعرفان بالطريقِ القويمِ إلى مرضاة الله -جلَّ جلاله-، ومعاني الهدَى في بيان الوحي قرآنًا وسنّة ضربان كليّان : معانٍ تكلِيفية ، ومعانٍ تثقيفية :

المعاني التكليفية هي الطلبة الرئيسة للعقل الأصولي: أصول العقيدة وأصول الشريعة من بيان الوحي قرآنا وسنة، والمعاني التثقيفية هي الطلبة الرئيسة للعقل البلاغي من بيان الوحي قرآنا وسنة.

تقوم المعاني التكليفية: ببيان ما يريد الله -تعالى- من عباده أن يفعلوه اعتقادا يملأ القلب ويفعمه، وأن يفعلوه سلوكا في علاقتهم بالله -تعالى- والحياة كونا وإنسانا.

وهذه المعاني التكليفية تتمثل في طلب فعل أو ترك فعل. وهو ما يعرف بالأمر والنهي، فالعلم بهما من أولى ما يجب على المرء العلم به.

يقول شمس الأئمة السرخسي الحنفي (ت:٤٨٣هـ): «أحق ما يبدأ به في البيان الأمر والنهي ؛ لأن معظم الابتلاء بهما، وبمعرفتهما تتم معرفة الأحكام، ويتميز الحلال من الحرام»(١).

وتقوم المعاني التثقيفية بتهيئة الأفئدة؛ لتلقي ما تحمله المعاني التكليفية من إلزام عقدي أو سلوكي، فبهذه المعاني التثقيفية، يتيسر إيجاد التكليفية أمرا ونهيا على الوجه المسترضى من الحق -سبحانه وتعالى-.

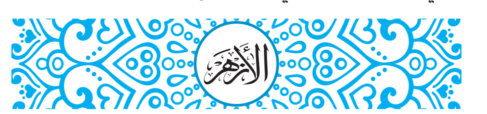
وكلما كان حضور المعاني التثقيفية في الفؤاد المكلف بأمر أو نهي حضورا فاعلا دائما كان إيجاد ما كلف به إيجادا مسترضى من المكلف به سبحانه وتعالى، فالله -تعالى- يحب منا أن نعبده محبة وتزلفا، فمن عبده لذاته، فهو الأعلى مقاما ممن يعبده طمعا في نواله أو خوفا من عقابه.

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(١) أصول السرخسي. لشمس الأئمة محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ) الناشر: دار المعرفة – بيروت . د:١/ ١١.







وقد جاء أنَّ سيّدَنا أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطَّاب -رَضِيَ اللهُ عَنهُ- قال فِي شأن سيدنا صهيب -رَضِيَ اللهُ عَنهُ-: «نِعْمَ الْعَبْدُ صُهَيْبٌ لَوْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ لَمْ يَعْصِهِ»(٢).

ولذا كان مستفتح سورة «أم الكتاب»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إعلامًا بأنّه تعالَى مستحقٌ للحمدِ لذاتِهِ، والحمدُ عبادةٌ، فكيف إذا ما كان مستحقًّا الحمد (العبادة) لذاتِه ولأنّه رَبُّ الْعَالَمِينَ والرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ومَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ؟(٣).

المعاني التثقيفية هي التي تستفز المرء إلى الإقبال على العبادة تشوفا وتشرفا واستشرافا لنوال محبة الله -سبحانه وبحمْدِه-.

والسنة البيانية لبيان الوحي قرآنا وسنة أنه لا يأتي الإعراب عن المعاني التكليفية عقيدة وشريعة خلاء من المعاني التثقيفية إما ممزوجة بها، أو مسبوقة بها أحايين، أو متلوة بها أحايين أخر.

لو أنّك نظرت في قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٢-٤)

(أم الكتاب) لتجلّى لبصيرتك أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحمل معنًى تكليفيًّا هو الأمر بحمد (عبادة) الله - تعالى- لذاته، وهذا معنى تكليفيّ فريضةٌ لازمةٌ على كلّ عبدٍ مِن عبادِ الله - سبحانَه وتعالَى- بَيْنا قوله تعالى بعد: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يحمل إلى فؤادِك تثقيفًا يثوّره ويستفزه ويغريه بأن يقومَ بهذه الفريضةِ قيامَ محبَّةٍ وتزلّفٍ وتشرّفٍ وتشوّفٍ، فربوبيَّته تعالى للعالمين تقِيمُ في فؤادك أنّه المقتدرُ على تربيتِك بالعطاء والمنع، وعلى تربيتك بكلِّ ما يأتيك به، فما عليك إلَّا أن تستقبلَ ما يأتِيكَ منه على أنَّه جاء به ليربّيك ويزكّيك، فتتصاعد في مقامات القرب الأقدس:

ينقلك مِن مقام: «الَّذين آمنوا» الّذين لهم جنة عرضها كعرضِ السَّماء والأرض إلى مقام «المتَّقين» الذين لهم جنة عرضها السَّماوات والأرض، إلى مقام «الذين أحسنوا» الذين قال فيهم:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾

(يونس:٢٦)

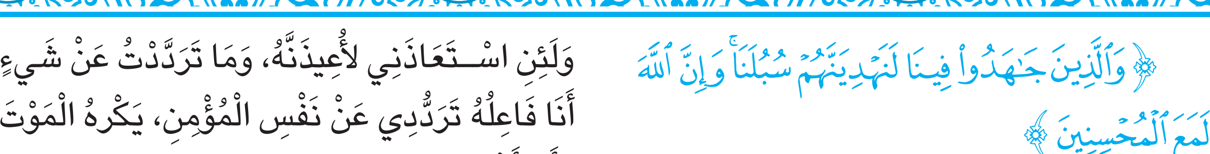
إلى مقام «المحسنين» الذين قال فيهم:

﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(الأعراف:٥٦)

(٢) ينظر كتاب : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. لعلاء الدين علي بن حسام الدين بن قاضي خان الهندي (ت:٩٧٥هـ) تحقيق: بكري حياني –صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة،عام: ١٤٠١هـ ج:١٣/ أثر رقم: ٣٧١٤٧.

(٣) قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (الفاتحة ٢-٤)من أجمع صيغ الحمد، فالزم ، فكل صيغ الحمد الواردة في بيان الوحي قرآنًا وسنة تئوب إلى تلك الصيغة، وتندرج فيها. فاتخذ لك منها وردًا.



﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

(العنكبوت:٦٩)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

(البقرة:١٩٥)

وإذا ما سمعت الله -تعالى- يقول: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ كذا، فالزم، واستحضر في فؤادك مُسْتبصِرًا ومتدبِّرًا مستطعِمًا ما جاء في الحديث القدسيّ الذي رواه البخاري في كتاب «الرقاق» من صَحيحه بسنده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلى اللـه عَلَيْـهِ وَعَلَى آلِه وَصَحبه وسَلّم -:«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرهُ مَسَاءَتَهُ».

أرأيت كيف تربيتُه وعطاؤه لمن يحبّ ؟ فاستحضر في فؤادِك أنَّ كلَّ ما يأتيك به: أمرًا بفعلٍ، أو نهيًا عَن فعلٍ، أو ابتلاء بنعمة تحبّها نفسُك، أو ابتلاء بمضرَّة تكرهها نفسُك؛ أنَّه سبحانَه وبحمدهِ إنّما يربِّيك ؛ لأنَّه يريدُ أن يعطيك محبتَه إنْ رضِيتَ ببلائه.

هو إذن يربّيك بالأمر والنّهي، بالعطاء والمنع، بالصحة والمرض، بالغنى والفقر، المُهمّ أن تنظر في ما يأتيك منه ما يستوجب حمدك إياه سبحانَه وبحمده. فإذا جاءك ما تكره نفسُك ولم تحمَده على ما جاءَك حمْدَك له على ما تحبُّ نفسُك فما أنت بالَّذي حَمِده (عبدَه) لِذاته؛ أيْ: إنَّك لَم تسْتجبْ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

***

